عمل مناسب

يسرى الأيوبي

كان الرئيس مقطب الجبين مشغول الخاطر حين دعا سكرتيرته "سائدة" في أمر مهم.. وتفرّس فيها مليّا بنظرة فاحصة، ثم قال:

- "كان هنا مظروف مختوم بالشمع الأحمر..هل رأيتـه حـين أحـضرت الدوسيهات في الساعة الثامنة؟

وأجابته سائدة وقد أحست أن الجو ملبّد بالغيوم، وأن رئيسها فـي اقـصى حالات الغضب:

- "نعم أظن أنني لمحت مظروفا مختوما على المكتب."

- "فهل تعلمين أين اختفى؟"

- "كلا يا توفيق بك..آسفة أن اقول أنني لاأدري عنه شيئا."

- "هل رأيت أحدا يدخل الغرفة بين الفترة التي تقع بين الثامنـة والثامنـة والربع؟ كنت مشغولا عند الوزير وحين عدت كان قد اختفى."

- "كنت في غرفتي مشغولة بالضرب على الالة الكاتبة ولم أنتبه لشيء ."

- "حسنا..يمكنك أن تذهبي الآن."

وكانت لهجته صارمة حين استدعاها مرة أخرى قبل انتهاء الدوام وقال:

- "عليك أن تعتبري نفسك مفصولة منذ اليوم. ولك أن تأتي في الغد لاستلام راتبك."

وغاض الدم من وجه الفتاة وأطارت المفاجأة صوابها:

- "أنا! ولكن لأي سبب؟"

وأكبّ على بعض الأوراق يمضيها وأجاب:

- "لاأستطيع أن أشرح الأسباب..إنني مشغول.."

وهال سائدة الأمر:

- "ولكن أليس لي الحق أن أعرف ما جنيت؟ الا تخـشى أن تأخـذ بريئـا بجريرة غيره؟ ألا تترك لي فرصة لأدافع عن نفسي وأبرئ ساحتي؟ ما عرفتـك من قبل غير منصف.."

- "إنني مشغول يا آنسة، فامتثلي للأمر الواقع.."

وخرجت سائدة وهي تصرّ على أسنانها ويكاد الدمع يطفر من عينيها.. أهي تتهم؟ ومن يتهمها؟ توفيق، توفيق! لا هذا كثير، أينتهي الأمر عند هذه المهزلـة؟ أتفقد ثقة رئيسها الغالية على هذه الصورة المهينة؟"

أية ليلة معتكرة الظلم أمضتها سائدة! إنها تشعر في أذنيها بدوي، ورأسـها يترنح لهول ما عانت. لكأنما أفعى مشعرة بروحها تهصرها هصرا. وتفاقم ألمهـا حتى لاتسعها الدنيا.. أدركت أنها كانت تجري وراء سـراب.. وراء حـب لـم يعصف الاّ بقلبها، ولم يحيا الاّ في وهمها.. أحقا لمحت في عينيه شعاعا يا سائدة؟ يالك من حمقاء.. إنه لايحمل لك حتى الإحترام والتقدير فكيـف بالحـب العميـق المخلص؟"

انتهى كل شيء يا سائدة فكفكفي دموعك واسـتعيدي كرامتـك الـسليب.. أيحسب هذا المغرور أن إهانتك على هذه الصورة بالأمر الهين؟ فوالله لو قطّر لك حب العالم ووهبك إياه لما محا خشونة هذا اليوم.. حتى لو ظهرت براءتك، أيمكن أن تنظري اليه بغير أن يطعنك خنجر اتهامه المسموم؟

وعادت في اليوم التالي الى عملها وقامت به على أكمل وجه كأن شيئا لـم يحدث فهي لاتحب ترك الأمور معلقة وحين دخلـت عليـه لتقـدّم لـه الأوراق المطبوعة نظر اليها في دهش وتقطيب فأجابته بعزم الكرامة الجريح:

- "لك أن تعتبرني ما شئت.. أما أنا فلا أبرح هذا المكان وأرفض اسـتلام أي مرسوم ما لم يظهر الحق.. وعند ذلك أقدّم استقالتي- وثق أنـك لـن تراني بعدها.."

- "نعم آسف أن أقول لك بأنك خطئت الصواب وتصرفت تصرفا لايليق بي أو بك.. وإنني أربأ بنفسي أن أبقى هنا بعد هذا ولو ضوعف لي راتبي عـشرا..

ولو همت على وجهي بدون عمل وأغلقت دوني كل الأبواب.. لست أملك ما أعتز به الاّ كرامتي ولقد جرحتها في الصميم.."

ونظر اليها نظرته المتفرسة وقال:

- "اسمعي ياآنسة إن لدي من الأسباب ما يجعلني أعتقد أنك تخدعينني.."

وغلغلت عينيها في عينيه وقالت بهدوء:

- "صارحني بأسبابك ياتوفيق بك.."

- "اسمعي ياآنسة..ان واجبي يحتم علي أن أكون حذرا، وخـصوصا مـن الفتيات الحسناوات أمثالك، فحزبي الذي ارتفعت به الى هذه المكانة قد وضع ثقته بي. وواجبي نحوه ونحو وطني قبل كل شيء. ولست أبالي أن أحطم أجمل فتـاة وأسوقها الى السجن لو بدا لي أنها تخـدعني وتكـشف أسـرار هـذه الـوزارة للمعارضة.. كنت أختبرك طوال مدة عملك وأطلعك على أسرار لا يعلم بها أحـد سواك، فكانت هذه الأسرار تتسرب.. وكانت هناك أوراق هامة تفقد، ولقد رافقت هذه الحوادث فترة قدومك."

وأنّت من فؤاد جريح:

- "إنك تشك بي إذن؟ وليس لي ما أدافع به عن نفسي.."

- "نعم ياآنسة..ان شكوكي تعززت بما بلغني عنك.. وأدركت أنك تخفـين مآرب في نفسك.."

وتملّك سائدة الجزع: "يا إلهي ماذا تقول؟ ماذا بلغك عني ؟ لم تنسج كل هذه الظنون حولي؟"

- "أرجوك لاتمثلي.. هل صدقتني القول يوم جعلتني أعتقـد أنـك بـأمس الحاجة الى العمل وأنك لاتحملين سوى شهادتك الثانوية؟"

- "رباه! ولكن ما شأن هذا في الموضوع؟"

- "له شأن كبير.. انني أفكر ماالذي يدفع فتاة مثقفـة ثقافـة عاليـة مثلـك تتقاضى راتبا يعادل ثلاثة أضعاف راتبها اليوم في شركة مرموقة لترضى بعمـل متواضع كهذا.. سكرتيرة!"

وهز رأسه متهكما مقلّدا إياها: "أتقبلني جندية صغيرة هنا؟ كانت هذه هـي كلماتك بالحرف.. جعلتني أخدع ببراءة نواياك، وحسبتك الفتاة التـي أسـتطيع أن أأتمنها وأصطفيها دون الجميع لتكون معينتي وكاتمة أسراري.. أيمكن أن تفسري لي معنى تصرفاتك؟"

ونظرت سائدة الى السقف والألم يطويها وينشرها وتنهـدت تنهـدة حـرّى واجابت:

- "لاأستطيع يا توفيق بك.. لاأستطيع.. إنها ظروف خاصة قـاهرة.. فـلا تؤخذ بهذه الأوهام.."

وقال بتهكمه السابق: "طبعا لاتستطيعين.. فليس مـن الـسهل أن تكـشفي أوراقك في هذه اللعبة الخطرة.."

وتقدمت منه وفي ملامحها لبؤة نزع منها شبلها:

- "أنظر الي.. حدّق فيّ جيدا.. أيمكن لهاتين العينين أن تكذبا وتخدعاك؟"

ونظر اليها نظرة طويلة هادئة: كثيرا ما يخدع المظهر البريء."

كان صدرها ينتفض انفعالا ودموعها على وشك الإنفجار فأردف:

- "اسمعي يا آنسة.. تكفيني هذه الشكوك ولا أريد أن تتحول الى يقين ثابت فتلاقي نكرا.. فانا رغم كل شيء أشعر بإشفاق نحوك، وأتمنى مـساعدتك فلعـل ضميرك يؤنبك يوما وتحسنين من حيث اسأت.. خصوصا وأن ما حصلت عليـه من معلومات ليس بذي خطر.. بل إنني مستعد لأعيدك الى عملك السابق إن شئت فرئيس الشركة صديقي.. أو أجد لك عملا آخر أكثر ملاءمة لك.."

فضربت سائدة المكتب بجمع كفها وهتفت وقد طاش صوابها:

- "ايها السيد انني في غنى عن إشفاقك ومساعدتك. واسمح لي أن أقول لك أن الإنسان الشريف يجد مكانه دائما تحت الشمس، ومهما عصفت به الرياح يرفع الرأس عاليا ليهزأ بالعاصفة.. وأنا واثقة بانتصار الحق، واعلم تماما أنك سـتندم بما اجترحت علي. ولكن حينذاك يكون كل شيء قد انتهى.."

ولم تستطع أن تكاتم دموعها فأجهشت بالبكاء.

- "اسمعي يا آنسة.. انني رجل كهل أكبرك بعشرين عاما، رجـل عركتـه الحياة وعركها فما عاد يؤخذ بالعاطفة والدموع، وخصوصا منها ما كان زائفا.."

وانتفضت سائدة وقد تزاحمت مشاعرها ودموعها فما عادت تدري ما تقول:

- "زائفة! أتدعو عاطفتي ودموعي زائفـة؟ لاعرفـت العاطفـة والـدموع الصادقة ما حييت يا أخي.. ان قلبك صخر.. ولقد قدّر علي أن أتحطم عليه منـذ عرفتك.. نعم سأعترف اليك.. سأعترف أنها ليست الوظيفـة المتواضـعة التـي اجتذبتني ولا أوهامك الجارحة، بل أنت. شخصيتك الساحرة، دبلوماسيتك الرائعة، نبلك النادر، خلقك الرفيع هي التي أسرتني وقرّبتني اليك..أكـان لـي أن أهتـف حينذاك ُأيها الرجل إنني احبك'؟ أما الآن فلا.. زال سحرك عن عيني وعرفتـك على حقيقتك رجلا شكاكا لايحتمل.."

- "وماذا بعد؟"

- "جرحت كرامتي مرات ثلاث، ولن أستطيع أن أغفرها لك..هل اطمـأن بالك الآن؟"

وكان يبتسم ابتسامة حلوة حين قال:

- "لست أفهم كيف جرحت كرامتك ثلاث مرات.."

- "حين نسيت اسمي وكنت أهمس باسمك مع كل نبضة من نبضات قلبي.. وفي هذا الإتهام.. وأخيرا في هذا الإعتراف الذي أرغمتني عليه.."

وأكبت على المكتب تبكي.."

ولمس يدها برقة وهو يهمس:

- "سائدة! أتخجلين من هذا الإعتراف الذي أعاد الي الحياة؟ لو لم أخش أن أظلمك بشمسي الغاربة لسمعته مني أكثر التهابا.."

ورفعت رأسها وهي لاتكاد تصدق ما تسمع وصدرها يعلو ويهبط.. فابتـسم ابتسامته الحلوة وقال:

- "لو رضيت مساعدتي لوجدت لك مكانا أكثر ملاءمة لك.. ولكـن مـاذا أفعل؟ لقد أبيت.."

وهتفت بلهفة: "ماذا تعني؟"

وضمها الى صدره قبل أن تفيق من دهشتها:

- "ماذا أعني! وأي مكان هو أكثر ملاءمة لك من بيتي؟ أتـصرين علـى الرفض؟"

- "والمظروف!"

- "انه قلبي وفيه اعترافاتي.. طلبت منك أن تستقيلي من عملـك لتتفرغـي لبيتك.. على الأقل في السنوات الأولى، فهل توافقين؟"

- "ضمني أكثر.. دعني أصدق.. لقد بترت قلبي.. يالك من ممثل بارع!"

وقطب جبينه وهو يحدق في عينيها:

- "بل كل ما تفوهت به كان صدقا.. أتنكرين جريمتك ياسارقة القلوب؟"

- "آه.. إنك مخيف حين تقطب.."

وضحك وهو يقول:

- "ولكنني مخيف أكثر حين أفني كيانك وأحرقك بقبلاتي.."

* * *